مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (17) العدد (8) 1995
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (17) No (8) 1995

مرآة لأبي العلاء المعري

الدكتور تامر سلوم*

❐ ملخص ❐

(تعب كلها الحياة) و (كل بيت إلى الهدم) هكذا يبدو العالم في هذا الكلام الذي جاء على لسان المعري. لا نهاية من الآلام والمتاعب لا نهاية من الغياب الدائم الحضور. لا شيء يقيني أو ثابت. كل شيء يدفع إلى الحيرة والقلق والشك. وكل شيء مثقل بالبلى والعناء والعدم. إنه يخلق عالمه بدءاً من هذا الموت. من هذا الحس الفاجع الذي يكشف عن شعوره بأن الحياة هشة سريعة الانكسار فهي (ثوب معار) أو مصباح يتقو ثم ينقص ضوءه حتى ينطفئ أو هي هجعة وما نشاهده من جمالها حلم نائم أو هي موت فوق الأرض أو (غيمة الموت) على حد تعبير المعري.

هذا ما يطمح البحث إلى تحقيقه أو إلى الكشف عنه في هذه الصفحات التي أقدمها إليك.

* أستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (17) العدد (8) 1995
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (17) No (8) 1995

A mirror for Abul Ala'al-Ma'arri

Dr. Tamer SALLOUM*

❐ ABSTRACT ❐

'All life is fatigue' and 'every house is bound to become debris!' This is how the world seems in the words of al-Marri. There is no end for the sufferings and the tortures, or the ubiquitous absence. Nothing is final or certain. On the contrary, everything leads to anxiety, doubt and uncertainty. Indeed, everything is doomed for decay and annihilation. Abul Ala'al Ma'arri creates his world not of this very death; this tragic sensibility which reveals his belief that life is fragile and false. It is nothing but a 'borrowed garment', or a lamp whose light fades slowly into darkness. Life is a nap and its beauty is a dream. It is death on earth; 'the cloud of death'.

The purpose of the paper is explore all these potentialities and to address them in detail.

* Professor at Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

أبو العلاء المعري شاعر الفكر والتأمل لأنه شاعر ميتافيزيائي، فحيث تبدو له الحياة تعباً كلها تستحيل الاستراحة فيها والطمأنينة إليها يصبح الموت غاية مقدسة، بل إن المعري يأنف أن يستريح إلاّ بالموت. فالموت لا يعني الانفصال عن الحياة، وإنما هو انفصال عن ظاهرها المباشر من أجل الاتصال بعمقها الكلي والغوص في أسرارها. لذلك كان شعر المعري تجسيداً للحياة في فشلها الفاجع، مأخوذاً بالعودة إلى حضن الأم الأصل / التراب، حيث يصبح الموت أيضاً كالهواء، وحيث يعايش المرء صمته وأشياءه وفي هذا ما يتيح له أن يعانق الفاجعة ويحتضن يباس الحياة ورمادها.

إن المعري يخلق عالمه بدءاً من هذا الموت، من هذا الحسّ الفاجع الذي يكشف عن شعوره بأنّ الحياة هشّةٌ سريعة الانكسار. فهي (ثوب معار) أو مصباح يتقد ثم ينقص ضوءه حتى ينطفئ، أو هي هجعة وما نشاهده من جمالها حلم نائم. أو هي موتٌ فوق الأرض أو (غيمة الموت) على حد تعبير المعري:

- وكذاك أحكام الزمان وإنما
ثوب الحياة، وما يضم، معار(1)

- كمصباح ليل بدا يستنير
ثم تناقص حتى خمد(2)

- حياتك هجعة: سهدٌ ونومٌ
ورؤيا هاجع ما أنقته(3)

- وكلٌّ يريد العيش والعيش حتفه
ويستعذب اللذات وهي سمام(4)

- وإنّ حياتي للمنايا سحابةٌ
وإنّ كلامي للحِمام، رعود(5)

وليست موطن إقامة أو استقرار أو جمال أو راحة، بل موطن قسوة وقلق وعناء، بل هي الموطن الذي تستحيل الاستراحة فيه، والطمأنينة إليه، والبقاء عنده. فهي إسار، وعمر الإنسان يشبه المسافة على المسافر أن يقطعها. والمرء يقطعها بأنفاسه التي يرددها. والدنيا كالفتاة الكاعب ومن أراد وصالها حلّ به ما حلّ بيسار الكواعب(6):

- يا ربّ! عيشة في الضلال خسار
أطلق أسيرك، فالحياة إسار
وكأن عمر المرء شقة ظاعن
شرى بأنفاس له، وشار
وكأنما الدنيا كعاب، أيُّنا
رجيّ لها صلة، فذاك يسار(7)

وهي مسافة أو جسر يصل بين موتين، وافتقاد الشخص يكون بعبوره ذلك الجسر، أو إننا ننتقل بين عدمين: كنا عدما قبل وجودنا، ثم نموت، نرجو الحصول على آمالنا وهي مستحيلة كأنها مربوطة بذنب السرحان أو عنق النسر. يقول أبو العلاء:

- حياة كجسر بين موتين: أوّل
وثان، وفقد الشخص أن يُعبر الجسر(8)

- نمرّ سراعاً بين عدمين ما لنا
لبثٌ كأنّا عابرون على جسر
وقد نأمل الآمال وهي منوطة
إلى ذنب السرحان، أو عنق النسر(9)
لقد أسفت وماذا ردّ لي أسفي
لما تفكرت في الأيام والعدم
في العدم كنا، وحكم الله أوجدنا
ثم اتفقنا على ثان من العدم
سيان عام ويوم في ذهابهما
كأن ما دام ثم أثبتّ لم يدم(10)
ونحن مثل الراكبين على الأمواج
وما بين بعضنا وبين الموت إلاّ ذراع أو
فتر، والأيام تسير بنا ولو كنّا مقيمين:

- ونحن كركب الموج ما بين بعضهم
وبين الردى إلاّ الذراع أو الفتر(11)
- والفتى والردى كراكب لجّ
إنما نفسه من الموت فتر(12)
- سرى الموت في الظلماء، والقوم في الكرى
وقام على ساق، ونحن قعود(13)
- أقمنا في الرحال ونحن سفر
كأنا قاعدون على الرحال(14)
وهذه الدنيا مرّة حبّبها إلينا وأغرانا
بحبها طبعنا اللئيم الحقير، وأعطتنا من
شباكها الغرور، فلا صفو فيها ولا سرور،
والسعادة لا تدور في فلك من الأفلاك فهي
غير موجودة والزمان وأهله سراب:
- أمرّت هذه الدنيا ومرّت
وإمراراً، أونّب لا مرورا
وأغرانا بها طبع لئيم
وأعطت من حبائلها غرورا
قرنتك من القرى، وقرت بهلك
وأقرت عبأها، وقرت شرورا
أيلبث لي فأذكره زمان
فإني خلته نسي السرور!(15)
- وكلٌّ يؤمل صفو الحياة
وذلك في فلك لم يدر(16)
-لا تسخرن فما الزمان وأهله
إلا سراب تنوفه سخار(17)
لا شيء يشفي من عبء الدهر، وإنما يزيد ثقله. ولعل هذا هو السبب العميق في أن أبا العلاء المعري لم يرَ في الحياة غير الشقاء وأشباحه وظلاله. والإنسان المعري هو الإنسان العائش مع آلامه وأحزانه المتخذ من الحياة كلها مجالا لتوكيد يأسه وعتمة دروبه. إنه الإنسان الذي لا يبقى حوله إلا الحزن والشقاء والآلام. فالحياة كلها تعب، وهي عقدٌ من الأذى، ودار أثقال وآلام، والعيش سقم وثقل وعناء، والبقاء على قيد الحياة هذه نكبة، وليس الإنسان فيها إلا حيّاً كالميت يقول المعري:
- تعب كلها الحياة فما أعجب
إلا من راغب في ازدياد(18)
- وأرى الحياة وإن لهجت بحبها
كالسلك طوقك لأذاة نظامها(19)
- والعيش سقم للفتى منصب
والموت يأتي بشفاء السقام(20)
- العيش ثقل وقاضي الأرض
يضحي ونصف خصوم المصر يشكونه(21)
- بقائي في الدنيا عليّ رزيّة
وهل أنا إلا غابر مثل ذاهب؟(22)

ولقد أدرك أبو العلاء شأن أسلافه أنّ الزمن تيار يجرف ويمحو. الزمن يأخذنا ويفصلنا عن الأشياء حولنا، ويعمق إدراكنا للهاوية التي تفصلنا عنه. والإنسان رهين بلى. إنه يعيش وقتيّاً خارج الأشياء وخارج نفسه معاً: مطارداً، يعتزل، ينتظر الموت. يتمنى أن يقهر الزمن والموت يتمنى أن يصير كالتراب والحجر. إنه كائن وقتي مهدّد لا يمتلك نفسه ولا يسيطر عليها. يظل متقلاً بتهديد الزمن الدائم (كل بيت للهدم) وكل إلى فناء، وكل شيء باطل. ولا يبقى على الأرض ساكن، ولا يترك الموت ضعيفاً ولا قويّاً، ولو كانت للجبال أرواح لماتت. (كل الجسوم إلى تراب)، ولو نخل العيش لما حصلت يد الناخل شيئاً سوى الموت:

- كل بيت للهدم ما تبتني الور
قاء والسيّد الرفيع العماد(23)
- لا يعدم الأسمر في غابة
حتفاً ولا الأبيض في غمده(24)
- كل يحاذر حتفا
وليس يعدم شربه
- لا ذات سرب يعرّى الر
دى ولا ذات سربه(25)
- ولو سكنت جبال للأرض روح
لما خلدت نضاء ولا إراب(26)
- والناس جنس ما تميز واحد
كل الجسوم إلى التراب تنسب(27)
- أرى الناس أنفاس التراب فظاهر
إلينا ومردود إلى للأرض راجع(28)
- لو نخل العيش لما حصلت
شيئاً سوى الموت يد الناخل(29)

الحياة عند أبي العلاء في مكان آخر. وهي تبدأ بعد الموت. فالموت لا يعني الانفصال عن الحياة، وإنما هو انفصال عن ظاهرها المباشر من أجل الاتصال بعمقها الكلي، والغوص في أبعادها الداخلية في ما يتجاوز الظاهر إلى الباطن.

هذا الموت ينفي الحياة بوصفها حجاباً يحجب الحياة الحقيقية، أو بوصفها (ساكنة) أو (مقيمة). فالموت سفر دائم عبر الأشياء نحو قلب العالم. هكذا ينظر أبو العلاء إلى الموت بوصفه حركة لا تنتهي، وينظر إلى الحياة بوصفها موتاً فوق الأرض أو هي (غيمة الموت) على حدّ تعبيره، أو هي سير لا ينتهي داخل هذه الحركة.

هذه حقائق. فماذا يُفيد نسيانها أو تجاهلها؟.

من هذا التساؤل تنطلق تجربة أبي العلاء. وهي تجربة تؤكد على أنّ المعنى العميق للإنسان هو في كونه يتطلع باستمرار إلى الموت، وإنّ ابداعه الشعري هو في كيفية التعبير عن هذه التجربة.

إنها تجربة لا تعنى بالحياة القريبة ولا تقف عند أسوارها الضيّقة المحدودة. وإنما تُعنى بما بعد هذه الحياة القريبة المألوفة.

بالموت المنتظر الذي يظل وعداً دائماً يُهدد الإنسان. وهو لذلك يفتح في أعماقه جحيماً يهبط فيه، يحاور الموت ويصادقه ويتمناه ويدعوه حتى الموت. (30).

فهو يرغب الموت ويتمناه، وهدفه الأخير الذي يسعى إليه هو العودة إلى أصل الخلق - إلى التراب - وهي عودة تفترض مغايرة الإنسان للأصل وتماهيه معه في آن. الأصل أو التراب بعبارة ثانية يبقى ذاته، فيما يتجلى عبر مخلوقاته وفيما تعود مخلوقاته إليه. بل إنَّ المعري يموت من كونه لا يموت:

- تجاوزت عني الأقدار ذاهبة
فقد تأبدت حتى ملّني الأبد
شربت قهوة هم كأسها خلدي
وفي المفارق مما أطلعت زبد (31)

وفي هذا الضوء يشعر المعري بوحدة الوجود، ويحس أنه في حاجة إلى الإتحاد مع حيوان الأرض أكثر مما هو في حاجة إلى الكلام مع إنسان أخر:

- أرى حيوان الأرض يرهب حتفه
ويُفزعه رعدٌ ويطمعه برق
فيا طائر اثمنّي، ويا ظبي لا تخف
شذاي، فما بيني وبينكما فرق (32)

ويتجلى له أنه ظامئ أبداً إلى معانقة الموت حيث يبدو العالم كرة من الغبار والوهم والسراب لا يستحق أن يوجد. من هنا هاجس المعري ليجعل من الموت ملجأ. من هنا حسرته حين يرى الأشياء تفنى وتزول، تتهدم وتغيب. فخضع له، وملأ ذاته به. الموت يُطهر الحياة ويصعدها ويُعيد لها أصلها وجوهرها:

- والأرض لطوفان مشتاقة
لعلّها من درن تغسل (33)

- فكري أنتِ، ربما هدي الإنسان للمشكلات بالتفكير:

شجر العيش معدن للرزايا
أودت الطير فيه بالتوكيد
كلنا غادر يميل إلى الظلم
وصفو الأيام للتعكير
عرّقتني، حتى شهرتُ، الليالي
ثمَّ صالت عليَّ بالتنكير
فاحسبيني كفضة هذبت في
كل عصر بمسّ نارٍ وكير
خلّصيني من ضنك ما أنا فيه
واطرحيني لمنكر ونكير (34)

- أيا جسد المرء ماذا دهاك
وقد كنت من عنصر طيب
تصير طهوراً إذا ما رجعت
إلى الأصل، كالمطر الصيّب (35)

لقد أدرك أبو العلاء أنَّ للحياة حداً هو الغياب أخيراً. فهي إذن تتردد بين حضور الوجود وحضور الغياب، تتضمن حسّ الفجيعة.

الإنسان المعري يدرك أنه سائر إلى الموت وأنَّ الحياة تُعجل هذا المسير. لذلك كان شعر المعري تجسيداً للحياة في فشلها الفاجع، في الظمأ الأبدي وفي حنين النفس للموت ورجعتها إلى الأصل /التّراب، والحرارة التي لا تقدر أن تثقب أسوار الحصار التي تفرضها الحياة. ولهذا كان يُقدم نفسه لصديقه الموت في حركة من التعاطف والرغبة والشوق:

- حولني عن ظاهر الأرض فالقلب يبليّ همومه التحويل
لو ملكت الرحيل جولت في الآفاق حتى يملّني التجويل

ويصور له أعماقه المليئة بالمهاوي والآلام ولا تستطيع أن ترى في العالم إلا المهاوي والمتاعب، وليس تمنيه منزلاً في بطن الثرى إلا صدى هذه الآلام والمآسي التي تغمره. ذلك أنَّ بطن الثرى بالنسبة إلى المعري مكان يتصالح فيه مع الناس والزمن والموت:

- يا جدثي حسبك من رتبة
أنك من أجداثهم معزلا؟
أملّني الدهر بأحداثه
فاشتقت في بطن الثرى منزلا
- آه غداً من عرق نازل
ومهجة مولعة بارتقاء (36)
ثوبي يحتاج إلى غاسل
وليت قلبي مثله في النقاء
وقد بلونا العيش أطواره
فما وجدنا فيه غير الشقاء
تقدم الناس فيا شوقنا
إلى أتباع الأهل والأصدقاء
ما أطيب الموت لشاربه
إن صحّ للأموات وشك التقاء (37)

حتى لكان الموت عند أبي العلاء ينبوع تحولات يتقمص الشكل الذي يتطلع إليه هوى الشاعر وجموع خياله. فهو أنيس، وطريق خلاص، وحلم، وسعادة، وحظ عظيم، وبرء وشفاء.

يقول المعري:

- إنَّ الذي الوحشة في داره
تؤنسه الرحمة في لحده (38)
- وبين الردى والنوم قربى ونسبة
وشتان برء للنفوس وإعلال (39)
إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما
طوتهم شهور في التراب وأحوال
- إذا خلق الإنسان ظل حمامه
وإن نال يسراً من أجل المواهب (40)
- وما العيش إلا علة برؤها الردى
فخلي سبيلي أنصرف لطياتي (41)
- إذا ما تفرقنا خلصنا من الأذى
ولم يحوج الراعي المسيم إلى الوسم
تحمل عن الأرض المريضة غاديا
ولا ترض للداء العياء سوى الحسم
وما فتئت روح الفتى في نوائب
تمارسها حتى استقلّت عن الجسم(42)

(ما أوسع الموت) وما أطيبه. تلك هي أمنية أبي العلاء المعري. يود لو يموت ويُعانق يباس الحياة، ويُصبح الموت أليفاً كالهواء. ويتساءل: لماذا الحياة ـ لماذا هذا الزمن الرياضي الأجوف؟ ففي لحظة لقائه مع الموت يتجسد الزمان كله. يرفض أبو العلاء التخلي عن أمنياته ليتخلص من متاعب الحياة وآلامها. العناء والتعب آثار تتركها حياته وهي تتدفع بقواها الخفيّة صوب المزيد من الحضور في ملكوت الموت. كل شيء في كيان أبي العلاء يصير بقوة الموت سحراً أو كيمياء تحويل، يصير راحةً للأجسام من احتمال الأثقال والنهوض بالأعباء فيحط عنها كل ثقل ويلقي عنها كل عبء:

يقول أبو العلاء:

- ما أوسع الموت يستريح به الجسم المعنّى، ويخفت اللجب(43)

- إن يقرب الموت منّي

فلست أكره قربه
وذاك أمنع حصن
يصير القبر دربه
من يلقه لا يُراقب
خطباً، ولا يخش كربه (44)
ـ قضى الله أن الآدميّ معذّب
إلى أن يقول العالمون به قضى
فهنئ ولاة الميت يوم رحيله
أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى (45)
ـ ما أطيب الموت لشرابه
إن صحّ للأموات وشك التقاء (46)
ـ أخمسين قد أفنيتها ليس نافعي
بتأخير يوم أن أعض على خمس
نرجّي إياباً من غد وهو آيب
وكان صواباً لو بكينا على أمس
وما زال هذا الجسم قد فارق الثرى
على تعب حتى أعيد إلى الرمس (47)

هكذا يكتسب المرء في الموت قيمته ومعناه، ويرى ألاّ طريق للخلاص من عناء الحياة غيره، وكأن وجوده في عالم كهذا لا قاعدة له غير العناء والتعب قائم على البحث والقلق. فيقينه بذاته ومصيره ينبعث من كون هذا العالم دون قاعدة تبدأ أشياؤه وتنتهي في سديم من الفناء والبلى والتفتت. إنه يعتبر العالم أفقاً لشقاء يزداد شقاء يوماً بعد يوم. وكلما اصطدم بأشياء العالم وشقائه وأعبائه ينفصل عنه ويعلن عزلته ويُمجد هذه العزلة في فشلها وسقوطها. فالمطهر الحقيقي بالنسبة إلى المعري هو في الموت لا في الحياة. ومن هنا كان المعري عدوّ الحياة لا يحسّ بوجودها إلاّ لحظة يرفض هذه الحياة ـ أي لحظة الموت.

بالموت تخف وطأة الموت أو تتلاشى. لا يعود هناك تعب أو عناء ولا تعود هناك أية عقبة أو أي حاجز. يُصبح الجسد، هو كذلك، فارس استجابة وعطاء.

هكذا يُقدم لنا شعر أبي العلاء المعري فيما يُقدم عالماً مليئاً بالعناء والتعب، ومع ذلك لا مفر في الوقت نفسه من أن نقيم فيه خيامنا ونُصغي إلى خطوات الموت الآتية على مهل أو على حين غرّة.

الحياة، في هذا المستوى، تجسّد جدلاً فاجعاً كل شيء فيها ملك الإنسان الذي لا يملك أي شيء. إنها إمكان خالص، لحظة هي استحالة خالصة.

الحياة في نظر المعري موت فوق الأرض، تعبر كالغيم، تتراءى وسرعان ما تغيب. تصبح كل لحظة تمرّ حياة تضيع أو تغيب ـ وبالأصح ـ تُصبح شكلاً من أشكال الموت. فلا يكاد المعري ينظر حتى تصير نظرته جزءاً من الفناء. من هنا تشبثه بالموت. يملأ المسافة بينه وبين العالم. وإذ يملؤها لا يُعمق إحساسه بالبلى والفناء فحسب، وإنما يؤكد كذلك أنّ الموت طريق الخلاص من عناء الحياة ومتاعبها وآلامها. ونستطيع أن نستجلي هذه المعاني إذا تعمقنا شعر أبي العلاء وما يقوم عليه من إدراك عميق للأشياء.

يقول أبو العلاء:

- يدل على فضل الممات، وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعب

ألم تر أنّ المجد تلقاك دونه شدائد، من أمثالها وجب الرعب

إذا افترقت أجزاؤنا حطّ ثقلنا ونحمل عبئاً حين يلتئم الشّعب

وأمس ثوى راعيك، وهو مودّع ولو كان حيّاً قام في يده قعب (48)

فالحياة "عناء للأجسام، لأنها تحملّها هذه الأعباء، لأنها تجمع أجزاءها المتفرقة، وتلائم بين بعضها بعض، وتحدث بينها من التضامن ما يعدها لحمل ثقلها الخاص أولاً، وللنهوض بما يحمل عليها من الأثقال ثانياً. فإذا تفرقت هذه الأجزاء بعد اجتماعها، وتباعدت بعد اقترابها، وفقدت هذا التضامن الذي كان يؤلف منها وحدة متماسكة يحمل بعضها ثقل بعض، وتنهض كلها بأثقال غريبة عنها. لم تتكلف مشقة، ولم تتعرض لجهد، ولم تحتمل ثقلاً، لأنها ليست مهيّئة لذلك ولا ميسرة له، ولا قادرة على النهوض به، وأنت لا تحمل الأشياء المتباعدة شيئاً مجتمعاً وإنما سبيلك إذا أردت أن تحمل شيئاً أن تلائم بين الحامل والمحمول، وأن تهيء أحدهما لقبول الآخر. ولذا فالموت يريح الأجسام من احتمال الأثقال والنهوض بالأعباء لأنه يُفرق أجزاءها، ويشتت ما اجتمع منها، ويُلغي ما كان بينها من التضامن والتعاون. وإذن فأمر هذا العالم بين جمع وتفريق، وبين تباعد وتقارب، والحياة من أهم عناصرها الجمع بعد التفريق، والتقريب بعد التباعد. فمن كره الجهد، وتبرّم بالمشقة، وسئم العنف واحتمال الأثقال، وآثر الراحة الكبرى فسبيله أن يؤثر الموت لأنه يحطّ عنه كل ثقل، ويلقى عنه كل عبء، ولأنه يبدأ فيحطّ عنه ثقل نفسه قبل أن يحط عنه ثقل غيرها من الأشياء.

وهذا المعنى في نفسه واضح مستقيم لا غموض فيه ولا عوج، وهو في الوقت نفسه مظلم عظيم الحظ من التشاؤم، يُصور التئام الجسم الحي على أنه شر يصدر عنه الجهد والتعب، ويُصور افتراق هذه الأجزاء على أنه خير يصدر عنه الجهد والتعب، ويصور افتراق هذه الأجزاء على أنه خير تصدر عنه الراحة والهدوء، فهو يزهد في الحياة، ويرغب في الموت. ولكن الشيخ حين أراد أن يؤدي هذا المعنى المظلم لم يؤده كما هو، ولكنه دار حوله واتخذ الخيال إليه سبيلا، فجعل الموت الذي يرغب فيه الحكيم صعب المرام كالمجد الذي يرغب فيه الطموح. كلاهما لا ينال إلا بعد الجهد، ولا يبلغ إلا بعد تكلف المشقات، ولكن كليهما يعقب الظافر به غبطة وطمأنينة ورضا.

قدم الشاعر بهذا الخيال بين يدي هذا المعنى على أنه وسيلة إليه، وتمهيد له، ثمّ ألقى هذا المعنى نفسه في البيت الثالث موجزاً متقناً دقيقاً صريحاً مرسلاً إرسال الأمثال ـ ثمّ عاد إلى الخيال فاستنبط منه دليلاً يؤيد هذا المعنى، ويوضحه، وضرب

هذا الدليل مثلاً يفهمه الغبي والذكي، ويسيغه الفيلسوف وغير الفيلسوف، وهو الراعي الذي ينهض بأعباء صناعته ما أتيحت لها الحياة، فهو يحتمل أثقالاً على اختلافها وتباينها منها المادي ومنها المعنوي. وقد رمز الشيخ لهذه الأثقال بهذا الكعب الذي يقوم الراعي، وهو في يده، فارغاً أو ممتلئاً. فهو يحمل نفسه أولاً، ويحمل القعب ثانياً. فإذا مات وثوى في قبره لم ينهض بعمل، ولم يحتمل ثقلاً ولا عبئاً، ولم يقم وفي يده قعب أو شيء آخر"(49).

هكذا يبقى الموت بالنسبة لأبي العلاء شروعاً دائماً. من هذا الأفق انبثق ما يُمكن أن نسميه الزمن المطلق. وليس شعره إلا واسطة لتعميق الإحساس بالموت والتغلب على الزمن الضيّق، وخلق زمن طليق واسع بلا تخوم، زمن يجري خفية إلى جانب الزمن.

يعرف أنّ الحياة سرعان ما تأسن، ولكي ينقذها من العفن يصلها بالموت، ينفخ فيها روح البلى التي تجعل من الموت مهد المستقبل وليس شعره إلاّ أغنيات تتصاعد وتتموج حول هذا المهد، حيث نلمس لباس العمر الذي يرثّ كل يوم، ونتحسس أنفاسنا التي يسافر فيها الموت، أو يسكن مثل شهقة في رئتنا، وحيث نرى وجهه مضروباً في كل مكان، ممتزجاً بأيامنا وأشيائنا الأليفة متعلقاً بجدران المدن، وفي البادية مربوط بحبال البيوت، مقيماً في إيوان كسرى وفي بيت العنكبوت، مرسوماً على جبين البدر، مهاجراً كالغيمة الخفيفة، يقذفه المد إلى الشاطئ تائهاً كالموج، تركض عن يمينه الضفاف، غائباً حاضراً كماء النهر، يبني موته في دمعه ويقول للريح أن تلّم أجزاءه، ويكون لعصفها أفقاً وخليلاً. موت يجيء من أرض بلا تخوم ولا حدود، يخترق الحصار، يجرف ويمحو أو يُبدع ما يشاء. يقول أبو العلاء:

- يكسى الوليد جديد العمر يلبسه
وكل يوم يرث الملبس الغالي (50)
- وما نفس إلاّ يباعد مولداً
ويدني المنايا للنفوس فتقرب(51)
- إذا ما مضى نفس فاحسبنه
كالخيط من ثوب عمر نهج(52)
- علق الحين في الحضارة بالجدر
وفي البدو شدّ بالأطناب (53)
- كسرى بين إيوانه والعنكبوت تظل تغزل(54)
- والبدر أنضته الغياهب والسرى
فليرض إن ينصف الفنيق البازل (55)
- فيا سحاب المنون ! سلتِ بنا
هل لك أخرى الزمان إنجام؟ (56)
- ونحن كركب الموج ما بين بعضهم
وبين الردى إلاّ الذراع أو الفتر (57)
- وما النعش إلاّ كالسفينة راميا
بغرقاه في موج الردى المتراكب (58)
- وما العيش إلاّ لجة ذات غمرة
لها مولد الإنسان والموت شكان (59)
- عفا الله عني ربّ ريح تهب لي فتذري ترابي من جنوب ومن شمال (60)

يعي أبو العلاء في هذا كله أنّ الموت جزء من حركة الحياة وبهذا الوعي

يستدعي تجارب عاشها الناس من عهد آدم. إنه مسكون بحسّ الزمان الذي يهدم كل شيء، وبسرعة زوال الأشياء وفنائها. وليس الزمن الذي يعيشه في شعره تتابع أحداث، وإنما هو العلاقة بين زمن الحاضر والزمن الذي يبدأ بعد الموت، وفي هذا يبدو أنه يتوتر بين زمنين: الزمن الأفقي الذي يهدمه ـ زمن الحاضر ـ والزمن النفسي العمودي المطلق ـ زمن الموت ـ. وفي هذا ما يضيئنا لكي نفهم الموت ومعنى الحياة عنده بشكل أفضل، ونكشف أدق التفاصيل والأسرار في حياته الشخصية.

" ما مضى لا يعود": علاقة الزمن آتي. يقولها المعري في الحاضر، لكن الحاضر حدّ متحرك في اتجاه المستقبل الآتي لأنّ الحاضر يبلى وينهدم ويمضي، ومن هنا شهوة المستقبل وإرادة القبض على الموت. يقتحم الموت ويعايش صمته وأشياءه وفي هذا ما يتيح له أن يعانق الفاجعة ويحتضن يباس الحياة ورمادها.

" الماضي لا يعود" تجلّ نفسي لحركة الزمن. وهذا التجلي إيحاء أو إشارة إلى تفتت الوجود، وأبو العلاء يعشق هذا التفتت ويحتضنه.

منسوجون بالزمن نحن البشر، لكننا لسنا قادرين على ردّه. (الماضي الذي لا يعود) يعطينا شعوراً بأننا ننتهي، وهو غابة أسرار سعيدة، لكنها غابة ماتت لا يستطيع أحد أن يردها. ومن هنا يعود المعري لا يرى العالم حوله ولا يرى حياته إلاّ من خلله. وهكذا لا يسكن (الماضي الذي لا يعود) في عينه وحسب، وإنما يسكن أيضاً في صوته بل يسكن كذلك في دمه. إنه منسوج منه لذلك يكشف انفعاله عن أنّ التراب وحده هو المأوى وهو المطهر والمغيّر، وأنّ قلبه يرتاح إلى اليأس، ويعيش كأنه يتأرجح بين عدمين: بين ماضٍ لا يعود وحاضر يُسرع السير إلى الفناء والبلى.

إنّ مكان السعادة هو نفسه مكان الفناء ولهذا يصرخ المعري بالظلام إن

إرمنا أيها الظلام في كل فج
فالمنى لم تزل تجرّ المنايا

يقول أبو العلاء:

- صاح هذي قبورنا تملأ الرحب
فأين القبور من عهد عاد؟ (61)
- فلسنا وإن كان البقاء محبباً
بأول من أخنى عليه حمام (62)
- وليس اعتقادي خلود النجوم
ولا مذهبي قدم العالم (63)
- وأقصر الوقت كون ثم ينظمه
حكم القديم فيفنيه بأكوان (64)
- عشت حتى يعود أمس لعلمي
أنه لا يعود بعد المرور (65)
- ولكن الشباب إذا تولى
فجهل أن تروم له ارتداد (66)
- لله أيامنا المواضي
لو أنّ شيئاً مضى يعود (67)
- إذا الفتى ذمّ شيئاً في شبيبته

فما يقول إذا عصر الشباب مضى (68)
وقد تعوضت عن كلّ بمشيبه
- أمس الذي مرّ على قربه
يعجز أهل الأرض عن رده (69)
فما وجدت لأيام الصبا عوضا- أودع يومي عالماً أنّ مثله
إذا مرّ عن مثلي فليس يعود (70)
- ما أمس بالشبح الذي إن مرّ بي
فرجوعه من بعد ذلك ممكن (71)
- في العدم كنا وحكم الله أوجدنا
ثم اتفقنا على ثان من العدم (72)
- إرمنا يا ظلام في كل فجّ
فالمنى لم تزل تجرّ المنايا (73)

ماذا يفعل المعري إذن وليس أمامه إلاّ الغياب الدائم؟

لماذا الحياة حين تكون سجناً والمكان حين يكون مقفلاً؟

سيختار الزهد مؤمناً ألاّ مؤنس إلاّ في العزلة، صديق الوحدة والانفراد، غنيّا عن الناس والمجتمع. فكيانه مرهون بعزلته الموحشة وبسجنه العميق الذي احتضنه وصار أنيساً حلواً ودرباً إلى العالم الخفي يمحو ستائر الواقع اليومي ويخلصه من تعب الحياة ويشفيه من داء العيش في مجتمع ليس إلا حشداً من الوحوش والذئاب والبهائم والشياطين والقرود:

إذا حضرت عندي الجماعة أوحشت
فما وحدتي إلاّ صحيفة إيناسي
وأعجب منيّ كيف أخطئ دائما
على أنني من أعرف الناس للناس(74)
- وفي وحدة الإنسان أصناف لذة
وكل صنوف الوحش يجمعها القفر (75)
- فاهرب من الإنس وعش واحداً
تسكن في الدويّة الداوية (76)
- اجتنب الناس وعش واحدا
لا تظلم القوم ولا تظلم (77)

إنه يُعلن خيبته من الناس والمجتمع، ويتطلع نحو عالم آخر ينهض على قيم مغايرة. سيكون هاجسه الرئيس، بالتالي، أن يرسم البشر الذين يتميز عنهم، فيضفي عليهم الصفات التي تسوغ له أن يرفضهم. فهو لا يضعهم موضع تساؤل وحسب بل موضع رفض أيضاً. وأبو العلاء هنا يُثير من المشكلات أكثرها تعقيداً وأكثرها شاعرية في آن: مشكلة العلاقة بين الأنا والآخر، بين الحياة والموت. وتلك هي مشكلات الإبداع. فالناس شر كلهم. والشر متأصل في نفوسهم من قبل هابيل وقابيل، حتى إنه ليتعجب كيف يطلع النهار والليل على البشر، وحتى أنّ الجوزاء لو علمت خبثهم لما طلعت عليهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم:

- تجنبت الأنام فلا أواخي
وزدت عن العدو فما أعادى
ولمّا أن تجهمني مرادي
جريت مع الزمان كما أراد
وهونت الخطوب عليّ حتى
كأني صرت أمنحها الوداد
فأي الناس أجعله صديقاً
وأي الأرض أسلكه ارتيادا؟

ولـــو أنّ الـــنجوم لـــديّ مـــال
نفـــت كفـــاي أكـــثرها انـــتقادا
فـــلو خـــبرتهم الجـــوزاء خـــبري
لمـــا طـــلعت مخافـــة أن تكـــادا (78)

– عجبت من الصبح المنير وضده
عـــلى أهـــل هـــذي الـــأرض يطـــلعان
وقـــد أخـــرجاني بالكـــراهية مـــنهما
كأنهمـــا، للضـــيق، مـــا وســـعاني
أشـــاحا، فقـــالا: ضـــلة ليـــس عـــندنا
محـــلٌ وفـــي ضـــيق الـــثرى وضـــعاني
أيعكـــس هـــذا الخـــلق مـــالك أمـــره؟
لعـــلّ الحـــجى والحـــظ يجـــتمعان (79)

– قـــد تزامـــنت إلى الفســـاد الـــبرايا
واســـتوت فـــي الضـــلالة الأديـــان
أنا أعمى أهدي إلى المنهج والناس كلهم عميان
والعصا للضرير خيرٌ من القائد فيه الفجور والعصيان
إن تعلني بالهم كأسي دنياي، فكأسي نعيمها عريان
يبتغي راغب، فما تكمل الرغبة حتى يهدّم البنيان

– ليـــس فـــي هـــذه المجـــرّة مـــاءٌ
فيـــــرجى وروده الصـــــديان (80)

– ليـــس اغتـــنام الصـــديق شـــأني
فـــــلا يكـــــن شـــــأنك اغتـــــنامي
مـــــن ادعى أنّـــــه وفـــــيٌ
فلينتســـب فـــي ســـوى الأنـــام (81)

"ليس في هذه المجرة ماء" ومن ادعى الوفاء فلينتسب في سوى الأنام. هذا ما يؤكده أبو العلاء، فعشرة الناس نفاق وكلهم خسة ودناءة ووسخ، وداؤهم نجس لابرء منه، وشيمتهم ممزوجة بالأذى والملل، وعالمهم عالم سفاهة وسوء، وهم كالكلاب تجمعت على الشر من أجل جيفة وهي الدنيا، ـــ إنّ الكلب خير من الإنسان، وهم كالوحوش والذئاب، بل إنّ المعري يتمنى أن يعيش مع الوحوش فلا ينزل بقرية ولا بلد، وهم شياطين وقرود، وكلهم متحير كالبهائم، ويستحق بعضهم اللجام والرسن وإن كانت له صورة الآدمي: يقول المعري:

– إنمـــا عشـــرة الأنـــام نفـــاق
وتـــباهٍ فـــي بـــاطل وتجـــازي (82)

– أنـــافق فـــي الحيـــاة كفعـــل غيـــري
وكـــل الـــناس شـــأنهم الـــنفاق (83)

– ومـــا حمـــدي لآدم أو بـــنيه
وأشـــهد أنّ كـــلّهم خســـيس (84)

– تفـــرّقوا كـــي يقـــلّ شـــركم
فإنمـــا الـــناس كـــلهم وســـخ (85)

– داء هـــذه الأنـــام لا يقبل الطبّ
وقدمـــــاً أراه داءاً نجيســـــا (86)

– وشـــيمة الأنـــس ممـــزوج بهـــا مـــلل
فمـــا نـــدوم علـــى صـــبر ولا جـــزع (87)

– نضـــحي ونمســـي كبـــني آدم
ومـــا عـــلى الغـــبراء إلـــا ســـفيه
فنســـأل العـــالم إنقاذنـــا
مـــن عـــالم الســـوء الـــذي نحـــن فيـــه (88)

– كـــلاب تغـــاوت، أو تعـــاوت لجيفـــة
وأحســـبني أصـــبحت ألأمهـــا كلـــباً (89)

– ســـببت بالكـــلب، فأنكـــرته
والكـــلب خيـــر مـــنك إذ ينـــبح (90)

– والشرُّ في حيوان الأرض مفترقٌ
والإنـــس كـــالوحش مـــن ضـــار ومبـــتقل(91)

– إذا أنـــت لـــم تهـــرب مـــن الأنـــس فاعتـــرف
بطـــلس تعـــاوى، أو ثعـــالب تضـــج(92)

- ولاة العالمين ذئاب ختل
تكون من الشقاء رعاة فزر (93)
- تمنيت أني بين روض ومنهل
مع الوحش، لا مصراً أحلّ ولا كفرا (94)
- نسخ المعاشر فالغضنفر ثعلب
في لؤمه والناس كالنسناس (95)
- ساس الأنام شياطين مسلطة
في كل مصر من الوالين شيطان (96)
- أصبحت غير مميز من عالم
مثل البهائم كلهم متحير (97)
- كالسوام الأنام هل فاز من سا
فر منهم إلى بطيء المراحل (98)
- حقّ وإن كان أخا ضورة
في الإنس أن يلجم أو يرسنا
وأن تسمّى رجله حافراً
في واجب التشبيه أو فرسنا (99)

هكذا يقوم شعر أبي العلاء على مفارقة: الجماعة تلغي فرديته وتفرده. لكن هل ستحقق له هذه العزلة والوحدة والخروج من الحياة – الحياة التي يتطلع إليها؟ هل سيردّ له الزهد ما سلبته الجماعة؟ هذه المفارقة تُعطي للرغبة فضاء أكثر اتساعاً، وزمناً أكثر حضوراً. وتعطي للغياب الدائم قوته وحضوره. ومن هنا نفهم كيف اختار أبو العلاء النقيض الكامل للحياة – الموت – وكيف اختار النقيض الكامل للجماعة – الوحدة – وكيف اختار النقيض الكامل للمجتمع – الطبيعة والوحوش والكلاب –.

الجماعة تقف حائلاً دون طموح أبي العلاء ونموه. ولذلك لا يمكن له أن يحيا ويشعر أنه حرّ إلا أن يخرقها. وفي هذا يقلب المعادلة. بدلاً من أن يكون التواصل مع الجماعة هو الأصل، يصبح الهروب والوحدة والعزلة – على العكس – هو الأصل. ومعنى ذلك أن أعراف الجماعة وتقاليدها وقوانينها تتحول هنا إلى حرية، والحياة إلى موت، والحضور إلى غياب دائم. ولهذا تصبح الوحدة والعزلة، من وجهة نظر أبي العلاء، شرط الحرية الأول والوحيد فيها. أي بهروبه من الجماعة يشعر أنه تجاوز مرحلة القصور وأنه مستقل وحر، بل إنّ العزلة والوحدة هنا هي نفسها شكل من أشكال الحرية.

وإذا كان أبو العلاء خائباً من حاضر مجتمعه وبشره وناسه فإنه راغب في حاضر حياة تبدأ غداً بعد الموت. أي أنّ مستقبله يندرج في زمن الحياة التي تبدأ بعد الموت، وشعره، في هذا الأفق، شعر رغبة، شعر – مشروع، وزمان الرغبة شكل آخر لمكانها. إنه زمان مطلق، امتداد نفسي لمكان لا تخوم له ولا حدود. زمن يستعجل الموت كأنه يرفض وجوداً يحدده الانتظار.

فالحياة لا يوصل منها إلى تأمل، ولا مطمع فيها لمن يروم التشفي بقربها، وبقاء المرء فيها هو الذي يقضي إلى الهلاك، ونفسه وأعضاؤه إلبّ عليه. فكيف يرجو أن يدفع ما يجرّه الزمان إليه؟!.

- تشتاق أيار نفوس الورى
وإنما الشوق إلى ورده
تدعو بطول العمر أفواهنا
لمن تناهى القلب في ودّه
يُسَرُّ إن مدّ بقاءُ له
وكل ما يكره في مدّه
كم صائن عن قلبه خدّه
سُلّطت الأرض على خدّه
وحامل تثقل الثرى جيده
وكان يشكو الضعف من عقده
وربّ ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم في وِرده(100)

وهي - أي الحياة - (تعب كلها) وإذا كان هناك ما يدعو إلى العجب فهو الرغبة في إطالة الحياة. إذ بقدر ما يطول عمر الإنسان يطول شقاؤه:

-غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعيّ إذا قيس بصوت البشير في كلّ ناد

أبكت تلكم الحمامة أم غنّت
على فرع غصنها الميّاد
خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلاّ من هذه الأجساد
سر إن استطعت في الهواء رويدا
لا اختيالاً على رفات العباد
فقبيح بنا وإن قدم العهد
هوان الآباء والأجداد
ربّ لحد قد صار لحداً مرارا
ضاحك من تزاحم الأضداد
تعب كلها الحياة فما أعجب إلاّ من راغب في ازدياد

والذي حارت البرية فيه
حيوانٌ مستحدث من جماد (101)

فأنت - كما يقول طه حسين "لا تكاد تقرأ - كلام المعري - حتى تتمثل أبا العلاء بين يديك، ينشدك هذه القصيدة بصوت الحزين المطمئن، صوت يمثل حزناً قد فطر قلب الشاعر، وصدّع كبده، واطمئناناً قد منعه من إظهار الجزع الذي يذهب بوقار الفيلسوف. نعم وصوت يصدر عن رجل يشترك عقله وقلبه في تأليف ما يقول، فللقلب تمثيل الحزن الشديد وللعقل فهم الأشياء كما هي، ودعاء النفوس إلى اليأس من آمال الحياة، والصبر على آلامها .....

أي معنى أصح وأي لفظ أمتن ! أي أسلوب أرق وأي تركيب أرصن !! أي معرض يستثير حزن القلوب ويستنزف ماء الشؤون !!.

أترى أن البكاء يرد مفقوداً، وأنّ الغناء يحفظ موجوداً ! أليس استيلاء الضعف على نفسك وعبثه بلبّك هو الذي يحزنك لصوت الناعي، ويطربك لصوت البشير؟ أليس الاستبشار بالشيء مقدمة حزن عليه؟ أرأيت حزنك يعظم على الهالك، إن لم يكن حرصك عليه شديداً، وحبك له موفوراً، وأنسك بقربه عظيماً؟ أرأيتك لو صدقت نفسك الحديث ووطئتها على احتمال الأشياء كما هي، تجد كبير فرق بين الخير والشر؟.

إنَّ حزناً في ساعة الموت أضعا
ف سرور في ساعة الميلاد

أترى أنَّ الشاعر يكذب في ذلك أو يمين؟.

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ
ـب فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد

سر إن استطعت في الهواء رويدا
لا اختيالاً على رفات العباد

فقبيح بنا وإن قدم العهـ
ـدُ هوان الآباء والأجداد

انظر إليه: كيف أحسن المزج بين رأيه الفلسفي في انحلال الأجسام إلى عناصرها، وبين ما أراد من البكاء على الهالكين والعزاء للباقين، والأمر بالتواضع والعظة، والنهي عن الخيلاء والاستكبار. كل ذلك في لفظ لا يطمع الناقد أن يجد إلى نقده سبيلا"(102).

وليس من شك أنَّ هذه الأبيات تحمل تشاؤم أبي العلاء وشكه في الخير والشر وازدراءه للدنيا وكل ما فيها. ومن مظاهر هذا التشاؤم أنَّ أبا العلاء "يتشابه عليه الغناء والنواح جميعاً، كما تتشابه الدنيا في مسراتها وأحزانها، فهي جميعاً تستوي وتتحد في رأيه، وتكون هذا الظلام المطبق الذي يضغط على أنفاسه ويلتفت إلى سامعه وقارئه ليريه أنَّ الدنيا كلها ليست إلاَّ جنازة قائمة ومقبرة كبيرة تمتد من أقدم العهود .... وما الحياة كلها في نظره إلا سجون من الحزن والضيق وغياهب من الألم والعذاب" (103).

الإنسان يقدم إلى الدنيا على رغمه ويخرج عنها باقتسار - كما يقول أبو العلاء - دون أن يظفر منها بشيء إلاَّ الخيبة، ولا ينال منها إلا كما ينال من يُنقي الهواء بالمنخل ويُصفي الماء بالغربال، أو يحصي الرمل أو يكيل البحر. فالحياة كلها تعب والقبر هو مكان الراحة. وكم لنا في ترابه من قربى ومن رحم:

- قدمنا إليها على رغمنا
ونخرج من ضنكها باقتسار (104)

- المرء يقدم دنياه على خطر
بالكره منه ويناها على سخط

يُخيط إثماً على إثم فيلبسه
كأن مفرقه بالشيب لم يخط (105)

- هل ميز يوماً هواء في لطافته
بمنخل أو صفا ماء بغربال (106)

- وقد عزَّ رملٌ على حاسب
كما عزَّ بحرٌ على كائل (107)

- لما ثوت في الأرض وهي لطيفة
قد ماؤنا أمنت من الأحداث

لم يستريحوا من شرور ديارهم
إلا برحلتهم إلى الأجداث (108)

-والترب نقليه ظلماً، وهو والدنا
وكم لنا فيه من قربى ومن رحم (109)

والإنسان ميت قبل أن يُقبر، وليست الحياة إلاَّ موتاً يسعى: الثوب الذي يلبسه هو الكفن، والمنزل قبره، وعيشه موته،

والموت بعثه وهو حياته الأصلية. يقول أبو العلاء:

- ثيابي أكفاني ورمسي منزلي
وعيشي حمامي والمنيّة لي بعث (110)

لا يزال طريقه. والوحدة التي قادته لا تزال أميرته الوحيدة. وهو سيد العزلة والوحدة والانفراد. لكنه كي يلامس أقصى المسافات يقيم علاقات ودية مع الموت، ويتوج نفسه باسم الموت ملكاً على الكائنات. فالموت جوهر وليست الحياة إلا وهماً أو حالة عابرة، ولولا الموت لفقد هذا العالم أسراره. ومن هنا نحسّ دائماً أنه كان يُخاطبه بنبرةٍ آثرة لا تخلو من الغموض.

اقتربي يا شجرة الموت، واتركي لهذا المشرّد الغريب أن يحتضنك، أن ينام في ظلك. هاتي غصناً من أغصانك واربطيه بوحدتي واتركيها في عناق أبدي، في صورة عاشقين.

اقترب أيها القبر، فليس أمامي غيرك.
إليك يتفكك الجسد ويتركب كانهيار ثلجي
وهوائجي إليك كيف أقمعها والحاجة إليك
تهتكني ؟!

أصادق نفسي فيك، وحين أتبعك أقول:

النفس يتبع بعضها بعضاً
لكن.

لماذا كلما اقتربت إليّ، أشعر كأن شيئاً في داخلي يرقّق ويصفّى

أنا المشرد وليس أمامي غيرك؟
هكذا أتحرك في سلاسل وحدتي وأنوّع الحلقات
هكذا أسأل:
لماذا يعيش المرء وهميّاً؟ وكيف أتحرر من سجوني؟
كيف يتحرر القفص؟ لذلك أتشرد.
أطمح إلى أن أتجوهر بك. أطمح إلى التبدد لذلك أتشرد
أنكر ما يجمعني، وأعشق ما يفرّقني.
ولذلك أتشرد وأقول: باسمك أيها الموت أنا التراب يلهو مع التراب.

لكن فوق ذلك يعيش أبو العلاء مع الآخر الذي صاغه ربه من الوسخ، يمتزج بالغبار والوجع وأطباق الذل والدنس. وربما لمزيد من الغوص في ظلامه، وربما لمزيد من الالتصاق بغور ذلك الظلام الآخر ـ الموت. ربما لكي يحسن الإحاطة بما ينطوي عليه من رحابة لا تحد وبما يزخر به من ضوء الداخل. يحنّ إلى الدخول في الرعب، رعب المهاوي والأشباح. كل شيء يقوده إلى السقوط. فالآخر دنس محض حتى أنّ الأرض لا يُمكن أن تتطهر إلا إذا زال عن آفاقها الإنس: يقول أبو العلاء:

- بنت عن الدنيا ولا بنت لي
فيها ولا عرس ولا أخت
إن مدحوني ساءني مدحهم
وخلت أني في الثرى سُخت
جسمي أنجاسٌ فما سرّتي
أنّي بمسك القول ضمّخت
ون وسخ صاغ الفتى ربُّه
فلا يقولنّ توسّختُ (111)

– هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطرٌ
فما بقوا لم يبارح وجهه دنس
والأرض ليس بمرجوٍ طهارتها
إلا إذا زال عن آفاقها الأنس (112)

وحين لا تمسك به يد، ولا تنظر إليه عين، تنفجر في أعماقه الحرقة يحنّ إلى الدخول في الرعب، يفيء إلى عزلته يطرد الوجع وأطباق الدمع. ويؤوب إلى غربته يحلم أن يتحول إلى إناءٍ من الفخار لأنه صار في مثل هشاشته أكثر قابلية لأن ينسحق ويتغرب. فالإنسان لعنة اغتراب. غريب بين الناس وغريب بعد أن يموت:

لعلّ إناء منه يُصنع مرة
فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأخرى وما درى
فواهاً له! بعد البلى يتغرب (113)

وكلما ازداد يقيناً بدنس الآخر ووسخه، يتطيب بوحدته، وينتسب إلى ما ينفيه، ويعلن الخيبة راحة، ويقول إنّ شر أنواع الشجر الذي يثمر الناس:

– شر أشجار علمت بها
شجرات أثمرت ناسا
حملت بيضاً وأغربة
وأتت بالقوم أجناسا
كلهم أخفت جوانحه
مارداً في الصدر خناسا (114)

إنه الأرض مكسواً بالزمن ورماده. يعرف ما الناس فيه، ولا يعرفون ما هو فيه، وكل شيء يحول بينه وبينهم. بين غابة ملأى بالوحوش والذئاب والكلاب والبهائم والقرود يبحث عن مؤنس أو صديق فتتبلّل رقعة الفضاء بالقتل وينسلها الظلم خيطاً، وتسقط أسئلته في جرار تتكسر، وتبدو شهوته قلعة محاصرة تتجه نحو الرماد، وتبقى الصخرة لذلك أفضل من أفضل الناس:

– يحسن مرأى لبني آدم
وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب (115)

وتبقى كلماته هباء يفتح قبره، ويخلق لموته جسداً ويعلن: الحياة سحابة تمطر في أنحاء أخرى وتحظى بينابيع عميقة بعيدة وتستريح في حصاة. والمرء في هذه الحياة كالنهر الذي يركض وراء مائه ولا يُمسك به، وكالغصن الذي يبحث عن ظله ولا يراه. ألا بعداً للحياة وسحقاً لها ولا بورك في كل ما هو حيّ:

– لو أنيّ كلبٌ لاعترتني حميّة
لجروي أن يلقى كما لقي الإنس
أرى الحيّ جنساً ظلّ يشمل عالمي
بأنواعه، لا بورك النوع والجنس (116)

الوطن سجن والحر فيه غريب. تولد في الوطن السجون والغربة في كل غد من جديد. كيف يسري الأسير؟! كيف تُمكن الإقامة؟! هكذا يشحب الوطن في عينيّ المعري، هكذا وجهه يحيّر ويعشي. إنه لا يستسلم إلى ما يراه ولهذا يجد نفسه دائماً داخل سلاسله وأسواره، يلبس الكفن، ويسكن القبر حصنه الحصين.

لأن جسده يوقظه ليتخذ الموت سريراً، ويتوسد الصحراء ويأنس بها، لأنه يعرف كيف يعري الدهر جسد الحياة
يستطيع أن يكسوها
لأنه يقف مع الحياة وهي تتلاشى وتفنى
تسكنه رغبة الموت
لأنه يعيش مهجوراً.

يعرف أن الإنسان ليس بحاجة إلى اسم أو كنية. وخير له أن يموت اقتلاعاً كالشجرة دون أن يترك وراءه غصوناً ولا أصولاً. يسأل نفسه من أنت أيها السجين الغريب؟

من يقول للمعري من هو؟

- ربّ روح كطائر القفص المسجون ترجو بموتها التسريح(117)

- إذا عدت الأوطان في كل بلدة
لقوم سجوناً فالقبور حصون
وما كان هذا العيش إلا إذالة
فعلّ ترابا بالحِمام يصون (118)
فكن بعض أشجار تقضّت أصولها
ولم يبق في الدنيا لهنّ غصون
- والحرّ في أوطانه مستغرب
فتظنّه، في مصره، بوبار (119)
- ما مقامي إلا إقامة عان
كيف أسري، وفي يد الدهر أسري؟ (120)
- أعفى المنازل قبر يستراح به
وأفضل اللبس فيما أعلم الكفن (121)
- والمصر آنس منه خرق مفازة
أنسَ الدليلُ بقافها مع طائها (122)
- لعمري لقد أغنتك صورة واحد
من الإنس ، في الأقوام، عن كنية واسم(123)

إنّ الموت يسكن في الحياة ويحلّ بها ويبقى داخلها ويتجه إلى تحويلها. يدخل المرء في أسرار الكون ويبطل الشعور بأنّ هذا العالم غريب أو معاد، ويُعيد الإنسان إلى مكانه الخاص به باستعادته أفراحه أو سعادته الضائعة. إنه الزمن المقبل الذي ينتظر مجيئه، الزمن الذي يظل في حقل الحياة اليائس وشجرها اليابس سرّاً عصيّاً دفيناً، وغيمةً تفتح الفضاء، وعيداً يُعلمنا كيف نعشق الموت، ونعرف أية لغة يقول إنه عيد الحياة:

- أنا صائم طول الحياة وإنما
فطري الحمام ويوم ذاك أعيّد (124)

حتى إنّ البلى يغني الإنسان ويبتكر له أفقاً جديداً وعالماً يبدأ في طرف الحياة. ومن هنا نفهم كيف أنّ المعري يتزيا بزينة الشقائق وبهجة الزهور وفوح الشذا الطيب. وحده هو وورق الموت وسرائر العشب يسافر في الورد نحو الحصاد ـ نحو الموت. يتفيأ الزرع الذابل ويجاور جذوره العميقة، يبحث عن أشباهه، يتعب مثل رماده. إنها نفسه ترتاح إلى أشلائها. إنه يفرش أشلاءه سريراً يطيّبها الموت ويستريح. شأن المسك الذي يزيده السحق غنى وطيبا:

- والناس كالزرع: باقٍ في منابته
حتى يهيج، ومرعيٌ وما لحقا
علّ البلى سيفيد الشخص فائدة
فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا (125)
- زاره حتفه فقطّب لما

وألقى من بعدها التقطيبا
زوّدوه طيباً ليلحق بالناس وحسب الدفين بالترب
نام في قبره ووسّد يمناه
فخلناه قام فينا خطيبا
للمنايا حواطب لا
أهشيماً جرت لها أم رطيبا (126)

صارت نفسه والموت عاشقين. صار بينهما لغة ورسائل، حتى إنه يُشبّه العالم الذي يخلقه شعرياً، بخلقه جنسيّاً ـ التفاعل الجنسي. فلقاء النفس بالموت كلقاء الأنثى بزوجها. وهو يجعل من هذا الزواج كيمياء الزمن المقبل، كيمياء الحياة التي تبدأ بعد الموت:

ــ لا تفرق النفس من حتف يحل بها
فالنفس أنثى لها بالموت إعراس.(127)

لقد قرأ أبو العلاء الحياة كتاباً فرأى أن الإنسان خرقة تذوب في النسيج الكوني، ورأى وجه الموت ووجه البلى والفناء طريقاً. هذا مدانا أن نرى الحياة وهي تنهار، وأن لا نكون غير هذا الموت، أن نبتكر رمادنا أن يصير الرماد في وجهنا مستقبلاً للكلام. فأسرع أيها الموت، وقولي أيتها الأرض لأشلائك: هذه أغنيتي ردّت إليّ:

– حاطني خالقي فعشت ولولا
خوفه، قلت: ليته لم يحطني
جسدي خرقة تخاط إلى الأرض
فيا حائط العوالم خطني (128)

هذا هو الإنسان لا يعدو أن يكون خرقة تذوب في النسيج الكوني يتهاوى ركامه، يستوطن في غنائه، يصطدم الرماد بالرماد تفترق أجزاءه، تنتشر، تختلف، تبقى بيتها مسافة، تدخل في أعراس المحو. تتكر ما يجمعها. دائماً تظل بينها مسافة كالزجاجة التي تتكسر ولا تسبك ثانية:

ــ ضحكنا، وكان الضحك منا سفاهة
وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
يحطّمنا ريب الزمان كأننا
زجاج، ولكن لا يُعاد له سبك (129)

إن نموذج الإنسان المعري نموذج مهاجر من نوع فريد، يعيش في نسيج زماني خالص في معزل عن الحياة والجماعة. وليست الحياة له مستقّراً بل جسرُ وممر. ليس وطنه هنا والآن بل وطنه الموت. حيث يتأقلم ويذوب ويستريح. كل ما حوله يتكسر غصناً، يهترئ ويسقط ورقة ورقة. فالحياة غياب دائم ولا يقع المرء فيها إلا على السراب المخادع والوهم الباطل.

لا حضور إلا بالموت. حيث يبدأ كل شيء. هناك على الدوام مسافة بين المعري كجوهر نفسي، والمعري كحياة يومية، مسافة طويلة يملؤها التفتت والعزلة والانهيار.

أغلب الظن "كما يقول المعري" أن هذا الزمان بكونه وفساده معاً ليس إلا عبثاً ولهواً:

– مناكب ساعاتي ركبت فأبتغي
لباثاً وسير الدهر لا يتلبّث

نهار وليل عوقبا، أنا فيهما
كأني بخيطي باطل أتشبّث
أظنّ زماني كونه وفساده
وليداً بترب الأرض يلهو ويعبث (130)

انظر إليه كيف يرى "أن الساعات بمثابة المطايا جامحة تحمل الأحياء وتمضي بهم إلى الفناء دون توقف ودون استجابة لرغبتهم في المكث والتلبث، ثمَّ هي تجتمع لتؤلف الليل والنهار اللذين يتعاقبان. ويحاول الراكب عبثاً أن يستمسك منهما للباث ولو بخيط فلا يقبض يديه إلا على باطل ووهم. وهما باختلافهما يؤلفان الزمان. وعندئذٍ يبدو الزمان بجملته وبكونه وفساده كالوليد الذي يعبث بالتراب. أو ليس الإنسان قد كوّن من التراب؟! فحياته هي ذلك العبث الذي يعبثه الطفل دون تميز حين يبدأ هو من تراب وينتهي إلى تراب. إنَّ المعري يصور صغر شأن الزمان وهو أنَّ الإنسانية في نظر الأبد واللانهاية.

كان يرتل هذه الأبيات قلب كبير لم يعرف تاريخ الأدب والفكر له شبهاً في العصف والسمو والإحساس النبيل والرثاء لجميع الكائنات لا للإنسان وحده. كان كأنما يوحى إليه من عالم آخر يعيش فيه بخياله حين كان ينظم مثل هذه الأبيات المتشائمة"(131)

هذا هو العبث ومناخه حيث لا يجد الإنسان ملجأً إلا العبث والسخرية يأوي إليهما ويحتضنهما ويتوغل فيهما بحثاً عن السجن الأبدي وتقصياً للانهيار والتفكك.

وحيث يتعثر الإنسان بسراب نفسه، وبخيبتها، وبباطل الحياة وزوالها وفسادها. فالحياة فاسدة أصلاً. فاسدة في جوهرها ونسقها.

— في أصلنا الزيغ والفساد وهـ
ذا الليل طبع، لجنحه، الخدر (132)

— والشر في طبع الأنام، فإن يبن
شيئاً سواه، فليس خيم نجار (133)

وولادة الإنسان هي أيضاً خطيئة أصلية، فيا ليت الإنسان لم يوجد ويا ليت الحيَّ يفنى:

— فليت وليداً مات ساعة وضعه
ولم يرتضع من أمّه النفساء(134)

لـم الشعر إذن؟

إنه لكي يضع قارئه باستمرار فوق هوة من العبث والعدم، ويقذف به في مناخ من الضياع - أو لنقل - العدمية بوصفها جوهر العالم، فيستشف كلُّ منّا دائماً وراءه ما يقوله المعري:

هـذا جـناه أبـي عـليّ
ومـا جـنيت عـلى أحـد

طريقاً للغياب الأصلي، في الحياة خاصة، وبحثاً خاصاً يؤدي دائماً إلى الحيرة والشك.

"يضع المعري معتقدات عصره، وأفكاره موضع تساؤل يلبس فيه الفكر ثوب الشعر، والشعر طاقة الفكر. يضعها، بتعبير آخر، في إطار فكري مشحون بالحساسية الشعرية، والمؤثرات النفسية المتعددة، والمتنوعة. فنحن، حين نقرأ النص

المعري، ندخل إلى حقل من التأمل، يبدو فيه المعري متعدداً، دون أن يعني ذلك أنّ التعددية كافية لتفسير نصه. إنّ المعرفة التي يزخر بها نصه نقيض للمعرفة التي تقوم على حقائق نهائية، وبخاصة المعرفة الدينية. ومن هنا، يكشف عن المكبوت في عصره، ويدعو إلى التفكير في ما لا يتاح بيسر، التفكير فيه. إنه رمز للخروج من المذهبيات، أياً كانت، واليقينيات من أية جهة أتت" (135) فهو لا يؤمن إلا للعقل ولا يأتم إلا به:

- يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء (136)

- سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا وأرحل عنها ما إمامي سوى عقلي (137)

- تستروا بأمور في ديانتهم وإنما دينهم دين الزنادبق
تكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرام وتصديق (138)

فانظر إليه كيف نفى الإمامة عن كل شيء إلا العقل، وأنه لا يرضى أن يأتم بغيره. على أنّ أبا العلاء "وإن رأى أن يتخذ العقل إمامه في البحث عن الأشياء، لم يستطع أن ينتحل له العصمة، ولا أن يزعم قدرته على الإيصال إلى اليقين المطلق، بل حفظ للشك حقه في الدخول على ما أثبته العقل" (139)

ومن هنا اختلفت أحكامه فأثبت الشيء ثمّ نفاه، وأوجبه ثمّ سلبه.

وفي ذلك يقول:

- ويعتري النفس إنكاراً ومعرفة وكل معنى له نفي وإيجاب (140)

فاختلاف الأفكار والمعرفة على النفس ليس له مصدر إلا تأثرها بالحياة المادية. ويقول أبو العلاء في الشك أيضاً:

- إنما نحن في ضلال وتعليـ
ـل فإن كنت ذا يقين فهاته
ولحبّ الصحيح آثرت الرو
م انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه إلا ظنونا
وطلا الوحش لاحق بمهاته (141)

فأنت ترى أنه على اعترافه بالشك قد أثبت اليقين، فلم يرتب في صحة انتساب الفتى إلى أمه، وإذاً فالحكم عنده مستيقن ومشكوك فيه، ويقول في الشك أيضاً:

ولقد حفرت عن اليقين بخاطر ما كاد يبلغ حفره الإنباطا (142)

فهذا البيت يثبت أنه قد يصغر عن إدراك اليقين في بعض المسائل لقصور عقله، أو لقيام الموانع بينه وبين ما يريده"(143)

حتى أنك لترى المعري باسطاً ظل الشك على الأشياء كلها. فقد "كان أبو العلاء أشدّ الناس إتهاماً للأخبار ورفضاً لها، فهو لا يؤمن بالتواتر، ولا يراه حجة، لأن هذا التواتر لا يستطيع أن يسلم من مطاعن العقل، وفي ذلك يقول:

ديـــنٌ وكفـــرٌ وأنـــباءٌ تقـــصٌ وقـــرا
ن يُـــــنصٌ وتـــــوراةٌ وإنجيـــــل
في كل جيل أباطيل مُلفقةٌ فهل تبرّد يوماً بالهدى جبل(144)

فانظر إليه كيف رفض الكتب الدينية كافةً، وجعلها أباطيل ملفقة لا تثبت حقاً ولا تنفي باطلاً، ومصدر هذا أنّ أبا العلاء كان سيئ الظن بالماضي، ولا سيما إذا بعد العهد به، ولذلك يقول:

سيســـأل قـــوم مـــا الحجيـــج ومكـــة
كمـا قـال قومُ مـا جديسُ وما طسم (145)

ثمّ هو يسيء الظن بالقدماء، ويرى أنهم كانوا ينتحلون الأنباء لاكتساب العيش، فيقول:

وأحـــــــاديث خـــــــبّرتها رواة
وافـــترتها للمكســـب القدمـــاء (146)

ويقول:

أفيقـــوا أفيقـــوا يـــا غـــواة فإنمـــا
ديانـــــاتكم مكـــــر مـــــن القدمـــــاء
أرادوا بهـــا جمـــع الحطـــام فـــأدركوا
وبـــادوا فمـــاتت ســـنة الـــلؤماء (147)

ولذلـك شـكّ فـي أكـثر مـا وردت الكـتب السـماوية، والأخـبار الـتي توارثهـا الناس"(148)

وشك في أب الإنسان فقال:

جائـــز أن يكـــون آدم هـــذا
قبـــله آدم عـــلى إثـــر آدم (149)

ثمّ جزم بذلك فقال:

ومـا آدم فـي مذهـب العقـل واحـدا
ولكـــنه عـــند القيـــاس أوادم (150)

فلم يؤمن بأن آدم شخص حقيقي، وإنما هو شخص من أشخاص الأساطير، فقال:

قـــال قـــوم، ولا أديـــن بمـــا قـــا
لـــوه إنّ ابـــن آدم كـــابن عـــرس
جهـل النـاس مـا أبـوه عـلى الدهـ
ـر ولكـــــنه مســـــمّى بحـــــرس
فـــي حديـــث رواه قـــوم لقـــوم
رهن طـرس مستنسخ بعـد طـرس (151)

والواقع أنّ النص المعري يُحقق في رؤيته علاقة عضوية بين الشعرية والفكرية ويفتح أمامنا بحدوسه واستبصاراته أفقاً فكريّاً جديداً، ويؤسس لهذا الجدل المستمر بين ما يرفضه المعري أو يشك به وما يقبله عقله ويدعو إليه. فهو يرفض الأديان وتعاليمها والكتب السماوية وأخبارها باعتبارها أباطيل ملفقة ويدعو إلى رفضها والشك فيها، ويكشف عن رغبات المعري المكبوتة في تفجير طاقات الإنسان وزوال الهوة التي تفصل بين رغبته وقدرته، وتهديم الحواجز التي تغلق فضاء الحرية. فهو بالشك نفسه، يريد أن يصل إلى جوهر الأشياء ويحققها، وبالشك نفسه أيضاً، يخترق حقول المعرفة وينتج القلق المعرفيّ إزاء الدين والقيم والأخلاق، إزاء الله والغيب، والحياة والموت، وإزاء مختلف المشكلات الأخرى التي يواجهها الإنسان، ويكشف عن المكبوت والغامض وفي ما لا يزال مخبوءاً وبعيداً لأنه لا يقدم يقيناً، ولا شيء في الفكر يثبت أو يتأسس قبلياً لأنه قلق وشك.

وقد قاد المعرّي هذا القلق وهذا الشك إلى إنكار الله ذاته، فهو لا يعرفه ولا يثبته، وإن اعترف به فإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الناس واتقاء سخطهم. يقول المعري:

أما الإله فأمر لست مدركه
فاحذر لجيلك فوق الأرض إسخاطاً (152)

وتستطيع أن تقرأ في هذه الأبيات، التي تبلغ فيها دقة السخرية مبلغاً لا يوصف، كيف أنّ أبا العلاء يشك في الله وكيف أنه لا يستطيع أن يتصور وجوداً خارج الزمان والمكان:

- قلتم لنا خالقٌ قديم
قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا زمان
ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلام له خبئٌ
معناه ليست لنا عقول (153)

وفي هذا الأفق أنكر أبو العلاء الجنّ والملائكة:

ـ قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به
حسّاً يحسّ لجنيٍّ ولا ملك

وقال:

فإنما تلك أخبار ملفّقة
لخدعة الغافل الحشوي حوشيتا (154)

ورسالة الغفران مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجنّ والملائكة جميعاً. وقد نظم الشعر في رسالة الغفران على ألسنة الجنّ الذين دخلوا الجنة، فقال ـ وإنما يريد الهزء والسخرية ـ:

مكّة أقوت من بني الدردريس
فما لجنيٍّ بها من حسيس (155)

" وكان منكراً للنبوات جاحداً لصحتها، وقد نصّ على ذلك في اللزوميات صراحة غير مرة، فطوراً يثبت أنها زور، وطوراً يجعلها مصدر الشرور، وافتنّ في ذلك افتناناً عجيباً، فلم يكتف بإنكار النبوات، حتى أنكر الديانات عامة، وزعم أنها للعقل مخالفة، وعن شرعته صادفة، يسلك في ذلك مسلك التورية مرة، والتصريح مرة أخرى. فيقول:

إنّ الشرائع ألقت بيننا إحناً
وأورثتنا أفانين العداوات
وهل أبيحت نساء الروم عن عرض
للعرب إلا بأحكام النبوات (156)

ويقول:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت
ويهود حارت والمجوس مضلّله
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا
دينٍ، وآخر ديّنٌ لا عقل له (157)

ويقول:

ولا تحسب مقال الرسل حقاً
ولكن قول زور سطّروه
وكان الناس في عيش رغيد
فجاءوا بالمحال فكدّروه (158)

ويقول:

أتى عيسى فأبطل دين موسى
وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يجيء دينٌ بعد هذا
فأودى الناس بين غدٍ وأمس

إذا قـــلت المحـــال رفعـــت صـــوتي
وإن قـلت اليقيـن أطـلت همسـي (159)

ويقول:

إذا رجـــع الحصـــيف إلى حجـــاه
تهـــاون بالشـــرائع وازدراهـــا (160)

ويقول في التعريض بالإسلام خاصة:

تـــلوا بـــاطلاً وجـــلوا صـــارما
وقـــالوا صـــدقنا. فقلـــنا نعـــم! (161)

ويقول في التعريض بالنبي:

ولســـت أقـــول إنّ الشـــهب يومـــا
لـــبعث محمـــد جعـــلت رجومـــا (162)

ويقول ذلك معرّضاً بقصة خيبر:

ومحمـــدٌ وهـــو المنـــبأ يشـــتكي
لمكـــان إكلـــته انقطـــاع الأبهـــر (163)

ويقول:

وإذا مـــا ســـألت أصـــحاب ديـــن
غيّـــروا بالقيـــاس مـــا رتـــبوه (164)

لا ـــ يديـــنون بـــالعقول ولكـــن
بأبـــــاطيل زخـــــرف كذبـــــوه

ويقول:

بـــنت النصـــارى للمســـيح كنائســـا
كـــادت تغيـــب الفعـــل مـــن منـــتابها

ومـــتى ذكـــرت محمـــداً وكـــتابه
جـــاءت يهـــود بجحدهـــا وكـــتابها (165)

وانظر إلى السخرية في قوله:

غـــداً أهـــل الشـــرائع فـــي اختـــلاف
تقـــضّ بـــه المضـــاجع والمهـــود

فقـــد كذبـــت عـــلى عيســـى النصـــارى
كمـــا كذبـــت عـــلى موســـى اليهـــود (166)

وانظر إلى تعريضه بالإسلام:

ولـــم تســـتحدث الأيـــام خـــلقا
وـــلا حـــالت مـــن الـــزمن العهـــود (167)

ومثل هذا كثير منبثٌ في اللزوميات"(168)

كما أنكر أحكام الشريعة واعترض عليها. فقال في إنكار الدية وقطع يد السارق:

يـــدُ بخمـــس مـــئين عســـجدٍ وُديـــت
مـــا بالهـــا قطعـــت فـــي ربـــع ديـــنار

تـــناقضٌ مـــا لـــنا إـــلا الســـكوت لـــه
وأن نعـــوذ بمولانـــا مـــن الـــنار (169)

وقال في إنكار ما في القرآن من تقسيم فرائض الميراث:

حيـــران أنـــت فـــأي الـــناس تتّـــبع
تجـــري الحظـــوظ وكـــلّ جـــاهل طـــبعُ

والـــلأم بالســـدس وهـــي أرأف مـــن
بنت لها النصف أو عرس لها الربع (170)

كما أنكر على النصارى قولهم بصلب المسيح، وعلى اليهود امتلاء توراتهم بالأكاذيب، وعلى المجوس عبادة ما لا يُعقل" (171)

وأنكر البعث فمن ذلك قوله:

إنّ الـــزجاجة لمـــا حطمـــت ســـبكت
وكـــم تكسّـــر مـــن درّ فمـــا ســـبكا (172)

وقال:

يســـبك الصـــائغ الـــزجاج وـــلا يســـ
ـــتطيع ســـبكاً لـــدرّ أن يتشـــظّى (173)

على أنّ أبا العلاء لم ينف البعث في هذين البيتين وحدهما، بل نفاه أكثر من ستين مرة في اللزوميات. وحسبك أن تقرأ قوله:

ريـــب الـــزمان مفـــرق الإلفيـــن
فـــاحكم إلهـــي بيـــن ذاك وبيـــني
أنهيتَ عن قتل النفوس تعمّداً وبعثت أنت
وزعمـــت أن لهـــا معـــاداً ثانيـــا
مـــا كـــان أغـــناها عـــن الحـــالين؟ (174)

هكذا يكشف شعر أبي العلاء المعري عن الغياب الأصلي في الحياة.

"فالحياة غائبة جوهرياً ـ لا الآن وحسب، بل أمس وغداً. فليس العالم والتاريخ إلا سلسلةً من الغياب الدائم الحضور، وليس الإنسان إلا سقوطاً متتابعاً ينتظر نهايته. هكذا يستعجل أبو العلاء الموت، كأنه يرفض وجوداً يحدده الإنتظار.

إنَّ أبا العلاء هو أول شاعر ميتافيزيقي في تراثنا الشعري، من حيث أنه مأخوذ بالمطلق: بالزمن، والموت، والفناء، والأبدية .... ميتافيزيقي، وليس شاعراً فيلسوفاً، ذلك أن الفكر الميتافيزيقي تأملُ في العالم، أما الفلسفة تتضمن أكثر من التأمل: تتضمن طريقة ومنهجاً في تأمل العالم. ولا طريقة لأبي العلاء: إنه يثير مشكلات ذات طبيعة ميتا فيزيائية، ويتحدث عنها ويستلهمها في سبيل توكيد الحقيقة التي يشعر أنها تملأ يقينه. وهو في شعره يتحدث بنبرة أليفة، نبرة الذي يعلم الحقيقة. لذلك يتوجه إلى الفكر أكثر مما يتوجه إلى الشعور. فالمعنى هو ما يهمّه في المقام الأول. ولعلَّ هذا ما يفسّر السبب في أنه لم يترك تقليداً فنياً يمكن التأثر به، كما ترك مثلاً، أبو تمام وأبو نواس، إنه عالمُ وحده، لا يتميز عمّن تقدموه من الشعراء وحسب، بل يتميز كذلك عن معاصريه.

كان أبو العلاء برجاً يرتفع وحيداً، عالياً، في مفازة البشر، وفي الجهات كلها، يرى ويتلألأ."(175).

الحواشي

(1) لزوم ما لا يلزم 631/2 (شرح نديم عدي . دار طلاس ط1/1986 دمشق).

(2) لزوم ما لا يلزم 533/1.

(3) لزوم ما لا يلزم 1633/3.

(4) سقط الزند 613/2.

(5) لزوم ما لا يلزم 410/1.

(6) يسار الكواعب: هو عبدٌ تعرض لبنات مولاه فاحتلن عليه وقطعن مذاكيره.

(7) لزوم ما لا يلزم 605/2.

(8) لزوم ما لا يلزم 554/2.

(9) لزوم ما لا يلزم 712/2.

(10) لزوم ما لا يلزم 1472/3.

(11) لزوم ما لا يلزم 558/2.

(12) لزوم ما لا يلزم 642/2.

(13) لزوم ما لا يلزم 410/1.

(14) لزوم ما لا يلزم 1319/3.

(15) لزوم ما لا يلزم 685/2.

(16) لزوم ما لا يلزم 825/2.

(17) لزوم ما لا يلزم 792/2.

(18) سقط الزند 977/3.

(19) لزوم ما لا يلزم 1418/3.

(20) لزوم ما لا يلزم 1512/3.

(21) لزوم ما لا يلزم 1560/3.

(22) لزوم ما لا يلزم 171/1.

(23) سقط الزند /1002.

(24) سقط الزند /1024.

(25) لزوم ما لا يلزم 153/1.

(26) لزوم ما لا يلزم 105/1.

(27) لزوم ما لا يلزم 112/1.

(28) لزوم ما لا يلزم 1018/2.

(29) لزوم ما لا يلزم 1343/3.

(30) أدونيس: مقدمة الشعر العربي /61.

(31) لزوم ما لا يلزم 1079/2.

(32) لزوم ما لا يلزم 1242/3.

(33) لزوم ما لا يلزم 806/2.

(34) لزوم ما لا يلزم 212/1.

(35) لزوم ما لا يلزم 1275/3.

(36) لزوم ما لا يلزم 66/1.

(37) سقط الزند /1027.

(38) سقط الزند /1690.

(39) لزوم ما لا يلزم 171/1.

(40) لزوم ما لا يلزم273/1.

(41) لزوم ما لا يلزم 1452/3.

(42) لزوم ما لا يلزم 118/1.

(43) لزوم ما لا يلزم 152/1.

(44) لزوم ما لا يلزم 71/1.

(45) لزوم ما لا يلزم 66/1.

(46) لزوم ما لا يلزم 897/2.

(47) لزوم ما لا يلزم 85/1.

(48) طه حسين مع أبي العلاء في سجنه 90 ـ 95.

(49) لزوم ما لا يلزم 1310/3.

(50) لزوم ما لا يلزم 93/1.

(51) لزوم ما لا يلزم 352/1.

(52) لزوم ما لا يلزم 209/1.

(53) لزوم ما لا يلزم 1357/3.

(54) لزوم ما لا يلزم 1232/3.

(55) لزوم ما لا يلزم 1420/3.

(56) لزوم ما لا يلزم 558/2.

(57) لزوم ما لا يلزم 165/1.

(58) لزوم ما لا يلزم 165/1.

(59) لزوم ما لا يلزم 84/1.

(60) لزوم ما لا يلزم 1291/3.

(61) سقط الزند 974/3.

(62) سقط الزند 612/2.

(63) لزوم ما لا يلزم 1506/3.

(64) لزوم ما لا يلزم 1607/3.

(65) سقط الزند /236.

(66) سقط الزند /577

(67) سقط الزند /653.

(68) سقط الزند /655.

(69) سقط الزند /1016.

(70) لزوم ما لا يلزم 410/1.

(71) لزوم ما لا يلزم 1541/3.

(72) لزوم ما لا يلزم 1472/3.

(73) لزوم ما لا يلزم 1728/3.

(74) لزوم ما لا يلزم 900/2.

(75) لزوم ما لا يلزم 553/1.

(76) لزوم ما لا يلزم 1726/3.

(77) لزوم ما لا يلزم 1499/3.

(78) لزوم ما لا يلزم 558/2 وبعدها.

(79) لزوم ما لا يلزم 1595/3.

(80) لزوم ما لا يلزم 1545/3.

(81) لزوم ما لا يلزم 1484/3.

(82) لزوم ما لا يلزم 847/2.

(83) لزوم ما لا يلزم 1110/2.

(84) لزوم ما لا يلزم 883/2.

(85) لزوم ما لا يلزم 392/1.

(86) لزوم ما لا يلزم 895/2.

(87) لزوم ما لا يلزم 1046/2.

(88) لزوم ما لا يلزم 1704/2.

(89) لزوم ما لا يلزم 123/1.

(90) لزوم ما لا يلزم 366/1.

(91) لزوم ما لا يلزم 1305/2.

(92) لزوم ما لا يلزم 357/1.

(93) لزوم ما لا يلزم 746/2

(94) لزوم ما لا يلزم 653/2

(95) لزوم ما لا يلزم 858/2.

(96) لزوم ما لا يلزم 1536/3.

(97) لزوم ما لا يلزم 600/2.

(98) لزوم ما لا يلزم 1360/3.

(99) لزوم ما لا يلزم 1574/3.

(100) سقط الزند 1016/3 وما بعدها.

(101) سقط الزند 971/3 وما بعدها

(102) طه حسين تجديد ذكرى أبي العلاء/ 199 ـ 200

(103) د: شوقي ضيف : الرثاء/104 ـ 105.

(104) لزوم ما لا يلزم 808/2.

(105) لزوم ما لا يلزم 995/2.

(106) لزوم ما لا يلزم 1311/2.

(107) لزوم ما لا يلزم 1351/3.

(108) لزوم ما لا يلزم 310/1.

(109) لزوم ما لا يلزم 1474/3.

(110) لزوم ما لا يلزم304/1.

(111) لزوم ما لا يلزم 257/1.

(112) لزوم ما لا يلزم 874/2.

(113) لزوم ما لا يلزم 89/1.

(114) لزوم ما لا يلزم 890/2.

(115) لزوم ما لا يلزم 115/1.

(116) لزوم ما لا يلزم 857/2.

(117) لزوم ما لا يلزم 374/1.

(118) لزوم ما لا يلزم 1529/3.

(119) لزوم ما لا يلزم 790/2.

(120) لزوم ما لا يلزم 804/2.

(121) لزوم ما لا يلزم 1533/3.

(122) لزوم ما لا يلزم 64/1.

(123) لزوم ما لا يلزم 1452/3.

(124) لزوم ما لا يلزم 445/2.

(125) لزوم ما لا يلزم 1125/2.

(126) لزوم ما لا يلزم 150/1.

(127) لزوم ما لا يلزم 881/2.

(128) لزوم ما لا يلزم 1630/3.

(129) لزوم ما لا يلزم 1155/3.

(130) لزوم ما لا يلزم 303/1.

(131) دراسات فنية في الأدب العربي :د: عبد الكريم اليافي /240 ـ 242.

(132) لزوم ما لا يلزم 645/2.

(133) لزوم ما لا يلزم 773/2.

(134) لزوم ما لا يلزم 58/1.

(135) أدونيس: الشعرية العربية/67 ـ 68.

(136) لزوم ما لا يلزم 61/1.

(137) لزوم ما لا يلزم 1288/3.

(138) لزوم ما لا يلزم 1140/2.

(139) تجديد ذكرى أبي العلاء /241.

(140) لزوم ما لا يلزم 99/1.

(141) لزوم ما لا يلزم 299/1.

(142) لزوم ما لا يلزم 994/2.

(143) تجديد ذكرى أبي العلاء / 241 ـ 242.

(144) لزوم ما لا يلزم 1225/3 وانظر تجديد ذكرى أبي العلاء /242.

(145) لزوم ما لا يلزم 1369/3.

(146) لزوم ما لا يلزم 51/1.

(147) لزوم ما لا يلزم 60/1.

(148) تجديد ذكرى أبي العلاء / 242 ـ 243.

(149) لزوم ما لا يلزم 1517/3.

(150) لزوم ما لا يلزم 1388/3.

(151) لزوم ما لا يلزم 935/2 وانظر تجديد ذكرى أبي العلاء /277.

(152) لزوم ما لا يلزم 993/2.

(153) لزوم ما لا يلزم 1227/3.

(154) لزوم ما لا يلزم 262/1.

(155) راجع في ذلك: رسالة الغفران /120 ـ 135 وتجديد ذكرى أبي العلاء /269.

(156) لزوم ما لا يلزم 282/1.

(157) لزوم ما لا يلزم 1269/3.

(158) تجديد ذكرى أبي العلاء / 270.

(159) لزوم ما لا يلزم 920/2.

(160) لزوم ما لا يلزم 1689/3.

(161) لزوم ما لا يلزم 1520/3.

(162) لزوم ما لا يلزم 1444/3.

(163) لزوم ما لا يلزم 763/2 .

(164) لزوم ما لا يلزم 1673/3.

(165) لزوم ما لا يلزم 200/1.

(166) لزوم ما لا يلزم 441/1.

(167) لزوم ما لا يلزم 441/1.

(168) تجديد ذكرى أبي العلاء /270 ـ 271.

(169) لزوم ما لا يلزم 737/2.

(170) لزوم ما لا يلزم 1025/2.

(171) تجديد ذكرى أبي العلاء /273.

(172) لزوم ما لا يلزم 1174/3.

(173) لزوم ما لا يلزم 1009/2.

(174) تجديد ذكرى أبي العلاء /275.

(175) مقدمة للشعر العربي /63 ـ 64.